

المحاضرة (5)

اللهجات العربية القديمة

تنتمي العربية إلى أسرة اللغات السامية، وقد انبثقت هذه اللغة بجميع لهجاتها من مجموعة من اللهجات التي تسمى بلغات شمال الجزيرة العربية القديمة، أما لغات جنوب الجزيرة العربية أو ما يسمى الآن باليمن وأجزاء من عمان، فتختلف عن اللغة العربية الشمالية، ولا تشترك معها إلا في كونها من اللغات السامية، وقد كان علماء المسلمين المتقدمون يدركون ذلك حتى قال أبو عمرو بن العلاء: "ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعريتنا"¹.

وقد تطورت اللغة العربية عبر مئات السنين حتى أصبحت - قبيل الإسلام - تسمى لغة مضر، وكانت تستخدم في شمال الجزيرة، بينما كانت اللغة العربية الجنوبية القديمة لغة (حمير) نسبة إلى أعظم ممالك اليمن حينذاك.

وقد تعددت لغات العرب، فكانت هناك لغة لقريش، ولغة لهذيل، ولغة لربيعة، ولغة لقضاة... وكل قوم من العرب يفهمون غيرهم بسهولة.

وكان نزول القرآن في تلك الفترة هو الحدث العظيم الذي خلّد إحدى لغات العرب حينذاك، وهي لغة قريش والحجاز.

وإذًا، فقد كان العرب على قسمين: العرب القحطانية والعرب العدنانية، والجميع وإن كانوا عربًا من أصل واحد، ولغتهم في الأصل كانت واحدة، فإن النظام الخاص الذي ساروا عليه في الحياة والمعيشة كفيّل بأن يجعل كلاً منهم يتخذ لنفسه أسلوبًا خاصًا في التعبير وكيفية النطق بالألفاظ.

ولا شك في أن عربية كلٍّ من القسمين دخلها - بمرور الزمن - بعض التغيرات، فكان هناك بعض اختلاف بين عربية الجنوب وعربية الشمال، كما عبر عن ذلك أبو عمرو بن

¹ - طبقات فحول الشعراء، 5/2.

العلاء في قوله السابق، وكل من هذين القسمين الكبيرين قد تكاثر، فتعددت قبائله، وتبع ذلك أن صار لكل قبيلة لهجة خاصة، بينها وبين غيرها من أحواتها اللهجات الأخرى بعض الاختلاف في الأصوات ودلالات الألفاظ، كما هو المشاهد في جميع الأقطار في شتى العصور¹، فلا يكاد يخلو عصر من وجود خلافات لسانية بين كل مكان وآخر. وقد بين ابن فارس في كتابه (الصاحي) أن لهجات العرب تختلف فيما بينها من وجوه:

1-الاختلاف في الحركات: كقولنا نستعين بفتح النون وكسرهما، قال الفراء: هي مفتوحة في لغة قريش وأسد، وغيرهم يقولونها بكسر النون.

2-الاختلاف في الحركة والسكون: مثل قولهم معكم ومعكم، بفتح العين وتسكينها.

3-الاختلاف في إبدال الحروف: نحو أولئك وأولئك. ومنها قولهم: أن زيداً وعزٌّ زيداً، ومن ذلك الاختلاف في الهمزة والتلين نحو مستهزئون ومستهزؤون.

4-الاختلاف في التقديم والتأخير: نحو (صاعقة) في لغة الحجازيين، و(صاقعة) في لغة التميميين.

5-الاختلاف في الحذف والإثبات: نحو استحييت واستحييت. وصددت وأصددت.

6-الاختلاف في الحرف الصحيح يبدل حرفاً معتلاً: نحو أمّا زيد وأيما زيد.

7-الاختلاف في الإمالة والتفخيم: مثل قضى ورمى، فبعضهم يفخّم وبعضهم يميل.

8-الاختلاف في الحرف الساكن يستقبله مثله: فمنهم من يكسر الأول، ومنهم من يضم، فيقولون: "اشترؤوا الضلالة"، و"اشترؤوا الضلالة"، بضم الواو وكسرهما.

¹ - في تاريخ الأدب الجاهلي، علي الجندي، مكتبة دار التراث، دار التراث الأول، 1412هـ - 1991م، ص95.

9-الاختلاف في التذكير والتأنيث: فإن من العرب من يقول: هذه البقر وهذه النخيل، ومنهم من يقول: هذا البقر وهذا النخيل.

10-الاختلاف في الإدغام: نحو: مهتدون ومهتدون.

11-الاختلاف في الإعراب: ما زيد قائماً وما زيد قائم، وإنّ هذين وإنّ هذان. وهذان بالألف دائماً لغة لبني الحارث بن كعب.

12-الاختلاف في صورة الجمع: نحو أسرى وأسارى.

13-الاختلاف في التحقيق والاختلاس: نحو (بأمركم) بضم الراء وتسكينها، ونحو (عُفِيَ له) بتسكين الفاء وكسرها.

14-الاختلاف في الوقف على هاء التأنيث: مثل (هَذِهِ أُمَّةٌ) و(هَذِهِ أُمَّتٌ).

15-الاختلاف في الزيادة: نحو (أنظر وأنظور)¹.

والواو في (أنظور) تسمى واو الإشباع مثل قولهم (البرقوع)، والعرب تصل الضمة بالواو. وحكى الفراء: أنظور، في موضع أنظر؛ وأنشد:

لَوْ أَنَّ عَمْرَأَ هَمَّ أَنْ يَرْفُودَا * فأنهَضْ، فشَدَّ المِئْزَرَ المعْفُودَا

أراد: أن يرقد، فأشبع الضمة ووصلها بالواو؛ وأنشد:

اللَّهُ يَعْلَمُ أَنَّا فِي تَلْفُوتِنَا * يَوْمَ الفِرَاقِ إِلَى إِخْوَانِنَا صُورُ²

وَأَنِّي حَيْثُمَا يَثْنِي الهَوَى بَصْرِي * مِنْ حَيْثُمَا سَلَكَوا أَذْنُو فَأَنْظُورُ

أراد: فأنظر.³

وقال ابن فارس: "يقع في الكلمة الواحدة لغتان كقولهم: الحِصَاد والحِصَاد، ويقع فيها ثلاث لغات، نحو: الرُّجَاج والرُّجَاج والرُّجَاج، ويقع فيها أربع لغات، نحو: الصَّدَاق

1 _ الصحابي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها ص 25 وما بعدها.

2 - الصَّوْرُ: المِئْل، والرجلُ يَصُورُ عُنُقَهُ إلى الشيء: إذا مال نحوه بعنقه، والتَّعَثُ أَصُور. ينظر: تهذيب اللغة، 12/ 159. يريد أنهم كانوا يوم الفراق دائمي التلفت نحو أحباهم.

3 - لسان العرب، 15/ 488.

والصِّدَاقِ وَالصِّدْقَةَ وَالصُّدُقَةَ، وَيَكُونُ فِيهَا خَمْسُ لُغَاتٍ، مِثْلُ: الشَّمَالِ وَالشَّمْلِ وَالشَّمْلِ وَالشَّمَالِ وَالشَّمْلِ، وَيَكُونُ فِيهَا سِتُّ لُغَاتٍ نَحْوُ: قُسْطَاسٍ وَقِسْطَاسٍ وَقِصْطَاسٍ وَقُسْطَاطٍ وَقِسَّاطٍ وَقُسَّاطٍ"¹.

وقد كان لكل لهجة من اللهجات ميزة واضحة عرفت بها، اعتبرها اللغويون هنة أو عيباً، ولم تسلم من ذلك سوى لغة قريش، وكانت قريش تستمع إلى هذه اللغات، فتختار منها أحسنها وأصفها، وتترك منها ما تراه مخلاً بالفصاحة، وقد نقل السيوطي عن أبي نصر الفارابي: "أن قريشاً كانت أجود العرب انتقاداً للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً وإبانة عما في النفس"².

ومن هنا كانت لغة قريش هي أفصح لغات العرب، والسبب في ذلك أنها تكلمت بما استحسنته من لغات العرب، وقد نقل السيوطي عن الفراء قوله: "كانت العرب تحضر الموسم في كل عام وتحج البيت في الجاهلية، وقريش يسمعون لغات العرب، فما استحسنوه من لغاتهم تكلموا به، فصاروا أفصح العرب، وخلفت لغتهم من مستبشع اللغات ومستقبح الألفاظ"³.

وقد رواه عن ثعلب: "ارتفعت قريش في الفصاحة عن عننة تميم، وكشكشة ربيعة، وكسكسة هوازن، وتضجع قيس⁴، وعجرفية ضبة⁵، وتلتلة بهراء"^{6,7}.

وسنين فيما يلي ما تميزت به لهجات بعض القبائل العربية:

¹ - المزهر في علوم اللغة وأنواعها، 1/ 206.

² - الاقتراح في أصول النحو، ص 47.

³ - نفسه، ص 175.

⁴ - المراد بالتضجع هنا: المبالغة في إمالة الحركات، وسيأتي تفصيل لذلك في المحاضرة السابعة.

⁵ - العجرفية: هي التقعر في الكلام وتنسب إلى قبيلة ضبة.

⁶ - التلتلة: هي كسر حرف المضارع.

⁷ - الخصائص، 2/ 13.

1- عجمجة قضاة: وهي إبدال الياء المتطرفة بعد عين جيما، نحو: الساعج خرج معج، و فقيم تبدل الياء جيما إن وقعت في الآخر مشددة أو ساكنة، فالأول كقول الشاعر:

خالي عُوَيْفٌ وَأَبُو عَلِجٍ * الْمُطْعَمَانِ اللَّحْمَ بِالْعَشِجِ

فقوله عالج هو عَلِيٌّ، والعشج: العشي¹.

والثاني كقول الآخر:

يَا رَبِّ إِنْ كُنْتُ قَبِلْتُ حَجَّتِجٍ * فلا يزال شاحج² يَأْتِيكَ بَجٍ³

ولغة فقيم أعم من لغة قضاة.

وقد ورد في بعض لغات العرب عكس هذا الإبدال، قال الشاعر:

إِذَا لَمْ يَكُنْ فَيَكُنْ ظِلٌّ وَلَا جَنَى * فَأَبْعَدُكُنَّ اللَّهُ مِنْ شَيْرَاتِ

أي: شجرات.

2- فحفحة هذيل: وهي إبدال الحاء عينا، كقولهم: عَلَّتِ الْعَيَاةُ لِكُلِّ عِيٍّ، أي:

حلت الحياة لكل حي.

3- عنعنة تميم وقيس: وهي جعل الهمزة المبدوء بها عينا، نحو: عِنَّا فَاضِلٌ، وعنت

كريم، في: إِنَّكَ فَاضِلٌ، وأنت كريم.

1 _ تاج العروس من جواهر القاموس، 5/ 396.

2 - الشاحج: البغل.

3 - شرح شافية ابن الحاجب، الرضي الأسترابادي 2/ 287

4- استنطاء سعد وهذيل والأزد وقيس والأنصار: وهو جعل العين الساكنة نونا إذا جاورت الطاء، فيقولون في أعطى درهما: أنطى درهما، وقرئ شدوذا: "إنا أنطيناك الكوثر"، وفي الحديث: "فإن اليد العليا هي المنطية، واليد السفلى هي المنطاة"¹.

5- كشكشة ربيعة ومضر: وهم في ذلك طوائف؛ فطائفة تجعل بعد الكاف المخاطبة المؤنثة شيئا في الوقف فقط وهو الأشهر، وطائفة تثبتها في الوصل أيضا، وطائفة تجعل مكان كاف المخاطبة المؤنثة شيئا مكسورة في الوصل ساكنة في الوقف. وحكى بعضهم أنه سمع أعرابية تقول لجارتها: "ارجعي وراء شي، فإن مولا شي يناديشي" أي: وراءك ... إلخ، وروي قول الشاعر:

فَعَيْنَاشِ عَيْنَاهَا وَجِيدُشِ جِيدُهَا * وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْشِ رَقِيقُ

أي:

فَعَيْنَاكِ عَيْنَاهَا وَجِيدِكِ جِيدُهَا * وَلَكِنَّ عَظْمَ السَّاقِ مِنْكِ رَقِيقُ

6- كسكسة ربيعة ومضر: يجعلون بعد الكاف أو مكانها شيئا في خطاب المذكر؛ ليفرقوا بين خطاب المذكر وخطاب المؤنث، يقولون: "عرفتس لما أن نظرتس".

7- وهم كلب: وهو كسر هاء الغيبة متى وليتها ميم الجمع مطلقا نحو: منهم وعنهم وبينهم، والفصحح أنها لا تكسر إلا إذا كان قبلها ياء أو كسرة مثل: عليهم وبهم.

وزاد السيوطي في المزهر في الرديء المذموم من لغات العرب قلب الكاف جيما؛ يقولون: الجعبة في الكعبة².

¹ - المستدرک علی الصحیحین، محمد بن عبد اللہ أبو عبد اللہ الحاکم النیسابوری، تح: مصطفی عبد القادر عطا، دار الکتب العلمیة - بیروت، ط 1، 1411هـ- 1990م، 363/4.

² - قصة الأدب في الحجاز، ص 192 وما بعدها.

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: قال معاوية يوماً: من أفصح الناس؟ فقال قائل: قوم ارتفعوا عن لخلخانية الفرات¹ وتيامنوا عن كشكشة تميم، وتياسروا عن كسكسة بكر، ليس في لغتهم غمغمة قضاة² ولا طمطمانية حمير³، قال: من هم؟ قال: قريش⁴.

ومع أن اللغويين القدامى وغيرهم اعتبروا هذه الخصائص السابقة هينات لغوية، إلا أنها مادامت العرب قد نطقت بها، فهي ليست خطأ في اللغة؛ قال ابن جني: "إلا أن إنساناً لو استعملها لم يكن مخطئاً لكلام العرب، لكنه كان يكون مخطئاً لأجود اللغتين. فأما إن احتاج إلى ذلك في شعر أو سجع فإنه مقبول منه، غير منعيّ عليه، وكذلك إن قال: يقول على قياس من لغته كذا كذا، ويقول على مذهب من قال كذا كذا، كيف تصرف الحال فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غير مخطئ، وإن كان غير ما جاء به خيراً منه"⁵.

1 - اللخلخانية: قيل: العجمة في المنطق، وقيل: هي في مثل قولهم: مشا الله كان، يريدون ما شاء الله كان.

2 - غمغمة قضاة: وهي إخفاء الحروف عند الكلام فلا تكاد تظهر.

3 - طمطمانية حمير: وهي جعل (ال) (أم)، نحو: أمهواء في الهواء.

4 - البيان والتبيين 3/ 145.

5 - الخصائص 2/ 14.